مجلة أبحاث البصرة (العلوم الإنسانية) المجلد :٣٦ ، العدد: ١ ، السنة : ٢٠١١ ، ص ٣٨١-٣٩٣

مدخل الى قراءة فلسفة نيتشه
من خلال كتابه " الفلسفة في العصر المأساوي الأغريقي "

م - سنا صباح آل خالد

جامعة البصرة- كلية الاداب - قسم الفلسفة

الخلاصة

ان اهمية نيتشه بوصفه من ابرز الفلاسفة تأثيرا في القرن العشرين ، فقد شكلت اعماله حدثا مهما في تاريخ الفلسفة،ومن ثم تعددت القراءات التي قدمت لها ،لذا كان البحث محاوله للدخول الى فلسفته من خلال كتابه الفلسفة في العصر المأساوي الاغريقي ،ذلك لاهمية تلك الحقبة وأثرها في موقفه الفلسفي ،كذلك في سعيه لاعادة اكتشاف فلاسفتها وابراز مايجب ان نحب ونكرم ، وتأويله لنصوصهم يعبر بشكل ما عن وجهة نظره في الفلسفة وما يجب ان تكون ، ومن ثم عن موقفه الفلسفي العام.

مدخل الى قراءة فلسفة نيتشه
من خلال كتابه " الفلسفة في العصر المأساوي الأغريقي "

يعد نيتشه (١٨٤٤ – ١٩٠٠) واحداً من أبرز الفلاسفة تأثيراً في القرن العشرين ، ومن المعالم البارزة في الفلسفة عموماً . فقد شكلت أعماله حدثاً مهماً في تاريخ الفلسفة ، فهي لحظة حاسمة فصلت فلسفة الحداثة عن ما بعدها ، كما تعددت القراءات لفلسفته ، منها قراءة كارل ياسبرز ومارتن هيدغر وجيل دولوز وغيرها من القراءات . ومن ثم يمكن القول ان التعرف على الفلسفة النيتشوية ، يمكن ان يعد مدخلاً مفيداً للفلسفة المعاصرة .

تحاول هذه الدراسة ان تكون مدخلاً لقراءة فلسفة نيتشه من خلال كتابه " الفلسفة في العصر المأساوي الأغريقي " والذي يمكن وصفه بانه قراءة نيتشوية للفلسفة اليونانية قبل افلاطون ، كخطوة منه لإعادة اكتشاف شخصياتها وبلورتها ، وقوله ما لم يقال عن فلاسفتها ،وأذا صح القول فأن تأويله لعباراتهم جسد فيه موقفه الفلسفي .اما المبرر لاختياره كمدخل لقراءة فلسفته ، يرى نيتشه:"...ان كون هذه اللحظة بالذات هي التي بدأ معها الاغريق بالتفلسف ، يعلمنا ما هي الفلسفة وما يجب ان تكون بقدرما يعلمنا حول الاغريق انفسهم" [١] كذلك وصفه لنفسه أنه أول فيلسوف مأساوي [٢].

ولكن هل قراءته للفلسفة اليونانية أستمدت من موقفه الفكري ؟ ام العكس ان قراءته للفلسفة اليونانية أثرت في موقفه الفلسفي العام ؟ او أن الكتاب هو نصوص وآراء تأملها لبلورة فكرته عن الفلسفة ؟ ولكن لماذا الشعب الإغريقي ؟ وما صلة الشعب بالفلسفة او المجتمع بالفيلسوف ؟

علاقة الشعب بالفلسفة :

تعد علاقة الشعب بالفلسفة أو المجتمع بالفيلسوف من الاضاءات المهمة التي توقف عندها نيتشة،ولم يفتتح بها نصه فحسب ، بل استأثرت بالنصيب الأوفر من الفقرتين الأولى والثانية من الكتاب*، كما يتجلى الاهتمام بهذا الجانب في صورة مباشرة او غير مباشرة في نصوصه المختلفة. ويشير في كتابه الى ان عافية الشعب تمنح الفلسفة شرعيتها ولكن أي شعب ؟ أن النموذج الذي اعتمده ، هو الشعب الاغريقي الذي استطاع ان يمنح الفلسفة شرعيتها ، ولكن ما المقصود بماهية العافية التي وسم بها الشعب الاغريقي ؟. يمكن تحديدها بنقاط عدة منها :

(١) طريقتهم في التعامل مع الحياة :

ان تصورهم المأساوي للوجود ، واقرارهم بواقع نسيجه غير المنطقي ، وما يحويه من ألم وفضاعة ، لم يحول هذا التصور دون اقبالهم على الحياة ورغبتهم فيها ، وبالرغم من استشعارهم مأساويتها . فقد كان الاغريق تواقون الى بلوغ كل ما هو عظيم ، ويواجهون كل المواقف الجدية والمخيفة بكل شجاعة وقوة . وهذه اللحظة هي التي بدأ الاغريق عندها التفلسف ، حينما كانوا سعداء في مكتمل العمر ، مسلحين بالابتهاج الغامر الذي يسببه النضج الرجولي المنتصر ، وليس عندما كانوا تعساء ويغمرهم الاستياء ، فحياة الاغريق كانت ذات امتلاء مفرط الى جانب المخاطر المذهلة التي كانوا يعيشونها.

وان فلسفة نيتشه ، هي دعوة لنحيا حياة شبيهة بحياة الاغريق ، هي فلسفة الرغبة في الحياة والرغبة في العافية ، التعامل مع الحياة بكل تناقضاتها ، الاستجابة الاثباتية الأكثر بهجة ، الاستجابة ذات التدفق المجوني العارم " للحياة " فهي تمثل الفهم الارقى والاعمق للحياة [٣] أي قبول حقيقة الوجود دون تزييف ، والتعالي على كل أشكال ، الالم والفضاعة.

(٢) طريقتهم في التعامل مع المعرفة :

فنهم في التعلم بشكل مفيد ، أي قدرتهم على هضم الثقافة الحية لشعوب أخرى ، وأن يوغلوا في البعد ، فقد التقطوا الرمح حيث تركه شعب آخر لكي يلقوا به الى أبعد . لذلك يجب أن نحذو حذو الاغريق في التعلم من جيرانهم واضعين المعرفة المكتسبة كدعامة في خدمة الحياة ، وليس في خدمة المعرفة الموسوعية ، فاستطاع الاغريق بغريزتهم المعرفية الشرهة بحد ذاتها ،وبفضل الاحترام الذي كانوا يكنونه للحياة ، واضعين المعرفة في خدمة الحياة .

(٣) طريقتهم في التعامل مع الفيلسوف :

انها تعكس واقع الفلسفة في المجتمع ، وطريقته في اكرامهم والاعتراف بفضلهم او معاداتهم . اما المجتمع الاغريق فأن وجود الفيلسوف عندهم ليس صدفة ، فحضوره حضور قائد نبيل يواصل تحذيره نفس الهدف الذي ولدت من أجله المأساة في نفس العصر . فالاغريق يمنحون وجود الفيلسوف شرعيته ، لأنهم الوحيدون الذين لا يكون الفيلسوف في نظرهم مذنباً ففي أوقات أخرى ، كان الفيلسوف مسافراً وحيداً يمشي صدفة في وسط معاد ، وكان إما أن يتسلل في هذا الوسط أو أن يشق لنفسه داخله ممراً وهو منقبض الكفين .

(٤) امتلك الشعب الاغريقي حضارة ذات أسلوب حياتي موحد ، فظهرت فلسفته بهذا الشكل ، مختلفة عن كل ممارسة حديثة للفلسفة محضة داخل سعة اطلاع وهمية وذلك بطريقة سياسية بوليسية مرتبطة بحكومات الكنائس ، بالجامعات بالاخلاق ، بالازياء الشائعة، والجبن البشري . لذا نجده يُنزل بمطرقته

على الفلسفة الحديثة ، على العقل والمنطق والعالم الحقيقي والاخلاق المضادة للطبيعة . التي تسير على العكس تماماً ضد غرائز الحياة ، التي ترفض كل رغائب الحياة وأمانيها ، وتضع قيما مضادة لها .

وبعد أن ينتهي نيتشه من أبرز سمات الشعب الاغريقي ، وهي التي منحت الفلسفة شرعيتها ، ينتقل في الفقرات اللاحقة لأبراز أهم فلاسفتها ، كخطوة أولى نحو إعادة اكتشاف هذه الشخصيات وبلورتها ، وذلك من خلال ابراز ما يجب ان نحب ونكرم ، ومن ثم فإن تأويله لنصوصهم يعبر عن وجهة نظره في الفلسفة وما يجب ان تكون .

(١) طاليـــس :

خصص نيتشه الفقرة الثالثة له ، واعتبر ان الفلسفة اليونانية تبدأ معه ، أي أنه أول فيلسوف يوناني ، ومبرر ذلك أن فكرته " الماء أصل كل الأشياء " مسلمة ميتافيزيقية هي " ان الكل هو واحد " نجدها في كل الانساق الفلسفية . ومن ثم ابتدأت الفلسفة من وجهة نظر نيتشه من الميتافيزيقيا ، وأن طاليس عندما أراد التعبير عن وحدة الوجود ، تكلم عن الماء ، أي أنه استعار الماء للتعبير عن وحدة الوجود . أما أرسطو حسب ولتر ستيس " يقول أرسطو ان قد يكون طاليس على الأرجح أستمد رأيه من ملاحظة ان تغذية جميع الأشياء من الرطوبة ... " [٤] اما راسل فيرى أنها فرض علمي جدير بالاحترام . [٥]

يشير نيتشه الى استخدام طاليس الاستعارة للتعبير عن حدسه الفلسفي ، فكما ان الكلمات والأبيات الشعرية بالنسبة للشاعر ليست سوى لعثمه بلغة أجنبية لكي يعبر بها عن الأشياء التي عاشها ولاحظها ، كذلك فأنها تعبير عن كل حدس فلسفي عميق .

لذا يمكن القول ان الفلسفة اليونانية أبتدأت من وجهة نظر نيتشه مع الميتافيزيقيا ، من فكرة وحدة الوجود ، التي عبر عنها نيتشه في فلسفته بارادة القوة .

(٢) انكسيمندريس :

أختار نيتشه ثلاث نقاط أعتقد أنها تشكل جزءا من شخصية انكسيمندريس ، وربما ان صح القول فأنها في الوقت ذاته تومئ لنا بفلسفة نيتشه بطريقة ما وهي :

أ- أسلوبه في الكتابة :

أفتتح نيتشه الفقرة الرابعة المخصصة لانكسيمندريس بالاحتفاء بأسلوبه .أذ شكلت مسألة الأسلوب نقطة مهمة في فلسفة نيتشه ،كما أن طريقة الكتابة بأسلوب الشذرات والحكم القصيرة التي عرفت بها كتابات بعض الفلاسفة الأغريق ، طريقة اعتمدها نيتشه وتوقف عندها الفلاسفة والباحثين في فلسفته.

ب- المسألة الاخلاقية :

وصفه نيتشه بأنه أول يوناني التمس عقدة المسألة الأخلاقية ، فأعطى لحركة الوجود قيمة أخلاقية . ومن ثم يطرح نيتشة فكرة انكسيمدريس بقوله : " أن ما تتولد عنه الأشياء ، أنما يجب ان تتوجه نحوه أيضاً لكي تبلغ نهايتها بالضرورة ، ذلك أنها يجب أن تكفر عن أخطائها ، حسب نظام الزمن " [٦] إذ رأى في تعدد الأشياء المولدة مجموعة من المظالم يجب التكفير عنها . فكل صيرورة هي طريقة مذنبة للتحرر من الوجود الأبدي . وهي ظلم يجب التكفير عنه بالموت . وأن على كل شيء عرف الصيرورة ان يزول . فكل شيء يولد يصبح محكوماً بخطيئة ولادته التي يكفر عنها بالزوال . فالموجودات ما كان يجب أن توجد وهي تكفر عن خطيئة وجودها بالموت .

كما نظر انكسيمدريس للوجود كظاهرة أخلاقية فهو مدان إذ أنه موطن الجريمة ، فخروج الأشياء ذنب وموتها تكفير ، ولهذا تصور الكون والفساد في الطبيعة تصوراً أخلاقياً ، فأصطبغت فلسفة الوجود بصيغة أخلاقية .

يبدو أن المسألة الأخلاقية قد أستأثرت بجزء كبير من فلسفة نيتشه ،ومن ثم هل يمكن القول ان قراءته للفلسفة اليونانية اثرة في موقفه الفكري؟ ام العكس ان قراءته للفلسفة اليونانية أثرت في موقفه الفلسفي العام ؟ فقد خصص للمسألة الأخلاقية عملين " أصل الاخلاق وفصلها " و " ما وراء الخير والشر" وكذلك عدد ليس بقليل من الفقرات . نجد أن مفهومه للفلسفة قائم الى حدِ ما على الاخلاق كما وضحه في كتاب " هذا هو الانسان " " أن الفلسفة كما كنت دوما أفهمها وأعيشها هي الحياة طوعاً في الجبال الشاهقة ، البحث عن كل ما هو غريب واشكالي في الوجود ، وعن كل ما ظل الى حد الآن منبوذاً من قبل الأخلاق . وأن تجربة طويلة أكتسبها من هذا التهوم في ربوع الممنوع هي التي علمتني أن أنظر الى الأسباب الكامنة خلف عمليات سن الأخلاق والمثل " [٧] كذلك في كتابه " ما وراء الخير والشر " يصف كل الفلسفات الكبرى بقوله : " أنها إعتراف ذاتي لصاحبها ، ونوع من المذكرات من غير ان يقصد او يلاحظ ، وأن النوايا الأخلاقية (أو اللأخلاقية) شكلت في كل فلسفة بذرة الحياة الاصلية التي انبثقت عنها، في كل مرة النبتة برمتها " [٨] فقد ارتبطت الفلسفات لديه بالمسألة الأخلاقية . وقد أستأثرت بمساحة واسعة من تفكيره ، فنجده يتتبع مفهوم الخير والشر ، وكيف ظهر وتطور في كتابه " أصل الأخلاق وفصلها " . وكذلك تجلى موقفه الأخلاقي في تقسيماته لأخلاق السادة وأخلاق العبيد . ويبدو أن الفلسفة من وجهة نظر نيتشه تبدأ من الميتافيزيقيا ومن ثم الأخلاق .

ج-المتشائم الأصيـل :

كان نيتشه شديد الإعجاب بطريقة انكسيمندريس في التعامل مع الحياة ، بالرغم من النظرة المتشائمة للوجود ، التي تظهر في قول انكسيمندريس حسب نيتشة ،عندما يطرح سؤاله على جميع الكائنات بقوله : " ما هي قيمة وجودكم ؟ وإذا لم تكن له أية قيمة ، فلماذا أنتم هنا ؟ أنني الاحظ أنه لمن خطأكم ان تتأخروا في هذا الوجود . عليكم ان تكفروا عنه بموتكم ، أنظروا مقدار تشويه أرضكم ،

فالبحار تغور وتجف ، وهذا ما تشير اليه الأصداف العالقة بالجبل ، والنار تهدم من الآن عالمكم الذي يستحيل دخاناً لكي يضمحل " [٩] وبالرغم من التشاؤم الذي يغمر عباراته إلا أنه كان كأي يوناني في عصر المأساة ، كان يبرهن بتصرفاته وعاداته على اعتزاز مأساوي بالحياة ، فكان يتنزه بثياب فائقة الأبهة ، لقد عاش كما كتب . وقد كانت طريقته في الكلام لا تقل احتفالية عن طريقته في الاكتساء . لقد كان يرفع يده ويثبت رجله كما لو كان هذا الوجود مأساة وهو ولد ليأخذ فيها دور البطل .يرى نيتشه أن هذا هو معنى المأساة بخلاف الرؤية التي قدمها شوبنهاور عنها .

هــرقليطس :

يعد من الفلاسفة الذين مارسوا تأثيراً كبيراً في الفكر الفلسفي النتشوي وقد استأثر بمساحة واسعة من كتابه ، ففي الوقت الذي خصص فقرة واحدة لطاليس وواحدة لانكسمندريس ، وقف مع هرقليطس على امتداد اربع فقرات (٥ – ٨) من كتاب يتكون من تسع عشرة فقرة ، مع العود الى هرقليطس عندما يتحدث عن بارمنيدس ، ولكن لماذا وصفه نيتشه بأنه انقى مصدر في الحضارة اليونانية ؟ وما هي ابرز النقاط التي اختارها نيتشة لتعبر عن هرقليطس؟

أ – حركـة الوجـود

لقد حول حس هرقليطس التراجيدي الرعب الى فن ، فبعد ان كانت حركة الوجود اتهاما اخلاقيا أصبحت مع هرقليطس لعبة الفنان والطفل فالصيرورة ، تبني وتهدم ، بدون أي اتهام أخلاقي ، وداخل براءة دائمة ، وهكذا تلعب النار الحية مثل الطفل والفنان ، وهكذا تبني وتهدم بكل براءة ، وهذه اللعبة هي الأبدية تلعب مع نفسها . ان النار ، بتحولها الى تراب وماء ، تكدس مثل الطفل أكواماً ، من الرمل على شاطئ البحر، أنها تكدس ثم تهدم . وهي من وقت لآخر تكرر لعبتها مرة أخرى . ثم تنتابها الحاجة كالفنان الذي تدفعه الحاجة نحو الأبداع ، أنها غريزة اللعب المستيقظة بدون توقف تحيي عوالم جديدة . أن الطفل يرمي دميته للحظة ، ولكنه ما يلبث أن يلتقطها مساقاً وراء نزوته البريئة .

ويبدو ان نيتشه تأثر برؤية هرقليطس للوجود كظاهرة جمالية بعد ان كانت ظاهرة أخلاقية مع انكسيمندريس .وتتجلى هنا قراءة نيتشة للفلسفة اليونانية وكيف اثرت في موقفه الفكري العام.فنظرللوجود كظاهرة جمالية ، وكذلك الى ان أصول الفن ومنابع الخلق الإنساني انما توجد في المظهر المزدوج للطبيعة الانسانية مظهري الحلم " Dream " والأغنية Song ، ونتيجة لذلك فقد أصبح الوجود عنده يفهم بالاستناد الى المصطلح الجمالي الاستطيقي ، ولقد تأثر بهذه النظرية الجمالية الى الوجود والطبيعة الإنسانية اتباع الفلسفة الوجودية المعاصرون الذين رأوا في الفن طريقاً للكشف عن حقيقة الوجود والكائنات [١٠] فقد أعلن نيتشه أن الفن هو المهمة العليا والنشاط الميتافيزيقي الحقيقي في هذه الحياة [١١] .

ويشير في كتابه " مولد التراجيديا " " أن الفن يستمد مقومات نموه المستمر من الثنائية المتمثلة في أبولو وديونيس ، تماماً كما أن تجدد الأنواع قائم على الثنائية الجنسوية ، بما في ذلك هذه الثنائية من صراعات لا تنتهي ، يتخللها أحياناً فقط بعض المصالحات الطارئة بشكل دوري ... هذان الاتجاهان المتعارضان جداً (النحت والموسيقى) يتماشيان جنباً الى جنب في جفاء شديد عادة بينهما ، متسابقين نحو أستدراك جذور أكثر قوة ، ما يعطي لصراعهما المتعارض طبيعة أبدية مفارقة ، فلا يلتقيان الا عند عبارة الفن فقط " [١٢]

وقد استعار نيتشه اسمين من اسماء الهة الميثولوجيا اليونانية ،واستخدمهما كرمزين للظاهرة الجمالية ،هما أبولو وديونيس، فأبولو رمز غريزة فن التشكل ، وهو اله الوضوح والنور والقياس والشكل والتأليف و التناسق . اما ديونيس فهو على العكس اله الفوضى المفرطة و اللاشكل وتيار الحياة الصاخب [١٣] .

(ب) المعرفة الحدسية :

يرى نيتشه ان كل عبارة لهرقليطس تعبر عن كبرياء وعظمة الحقيقة ، ولكن أي نوع من الحقيقة ؟ هي الحقيقة التي يدركها بالحدس دون أن يتسلقها بسلم حبال المنطق ، والتي يدركها بنشوة العرافة وليس بالملاحظة ويتعرف عليها بدل ان يستنتجها ، فهرقليطس موهوب بقدرة فائقة على التمثل الحدسي ، رافضاً لطرق التمثل الأخرى التي تستخدم المفاهيم والتراكيب المنطقية ، أي ازاء العقل ، كما يبدو أنه يجد بعض اللذة في معارضة العقل انطلاقاً من حقيقة يستمدها من الحدس .

إن النقاط التي توقف عندها نيتشه في عرضة للمعرفة لدى هرقليطس ، تبرز كيف أثرت قراءته للفلسفة اليونانية في موقفه من مسألة المعرفة ، فقد حدد نيتشه بعض المسائل التي تعوق البحث المعرفي ، منها العقل أنه يدعي معرفة كل شيء وادراك في الوجود ، ويبدأ بالمنطق الذي يعده الأبن الأكبر للعقل وهو وهم مقصود فمبادئ الفكر كالجوهروالعلية و الغائبة أدوات للظفر والامتلاك . فالعقل يخترعها ، ويفرضها على العالم والوجود الحقيقي فرضاً . كذلك أنكر نيتشه القول بوجود عالم آخر للحقائق مقابل عالم الظواهر ، فهو يرى ان عالم الأشياء في ذاتها أو العالم الحقيقي أكذوبة يشرح تاريخها والأدوار التي مرت بها في كتاب " أفول الأصنام " تحت عنوان كيف غدا العالم الحقيقي خرافة [١٤].

(ج) أسلوبه في الكتابة :

يرى نيتشه أننا لا نعرف أبداً رجلاً كتب بشكل أكثر إشعاعاً ، أنه لأسلوب مقتضب فعلاً ، فهو إذن غامض بالنسبة للذين يقرأون وهم راكضون . أما ما يخص الإيجاز فيقتبس نيتشه رأي لجون بول يصفه بأنه درساً جيدا يقول : " صحيح في المحصلة لا يكون معبراً عن كل ما هو كبير – الغنى بالمعنى بالنسبة لعقل نادر – إلا بشكل مقتضب (لهذا السبب) غامض ، كي يفضل العقل التافه ان يرى فيه لا معنى على أن ينقله الى تفاهة فكرة "[١٥].

ويبدو أن طريقة الكتابة الفلسفية ، لدى نيتشه كانت متأثرة الى حد كبير بالفلاسفة الإغريق وخصوصاً بأسلوب الشذرات والحكم والشعر ، وقد كانت نقطة الكتابة لدى نيتشه نقطة إهتمام الفلاسفة والباحثين . والرأي الذي يعتمده لتحليل مبرر غموض عبارات هرقليطس ، اعتمدته سارة كوفمان تقول : " أن الأسلوب المجازي يسمح لجمهور نفس العرق بالتعرف على بعضهم البعض ، وتقصي انسان القطيع على أنه قذر نتن ، وأن يتحدث المرء بكيفية عمومية معناه ان يصير سوقياً "[١٦].

(٤) بارمنيدس :

شغل بارمنيدس مساحة واسعة من كتاب نيتشه ، فقد أفرد له خمس فقرات (٩ – ١٣) . يرى فيها نيتشه ان حياة بارمنيدس تقسم الى مرحلتين ، ووصف المرحلة المتأخرة ، بانها اللحظة الأقل يونانية في كل عصر المأساة ، ولكن لماذا وصفها نيتشه بأنها الأقل يونانية ؟

أ – التجريـــد :

لقد عرف بارمنيدس للحظة أن يدرك التجريد الأصفى ولكنه تجريد مريض كلياً لا يعكر صفوه أي واقع ، ومن هذه اللحظة الأقل يونانية في كل عصر المأساة ، أنطلق مذهب الوجود . وصاغ مبدأه حول الوجود واللاوجود .

ب – التمهيد للثنائية :

لقد ميز بين صفات ايجابية وصفات سلبية ، ولم تكن الصفة الثانية ظاهراً سوى نفياً للأولى . ساعياً بكل نشاطه لتأكيد هذا التعارض الأساسي في مجمل العالم الطبيعي . وربما كان رفض بارميندس للحس واعتماده على العقل يمهد الطريق للثنائية ،وذلك بفصله الحواس عن ملكة التجريد ، أي العقل ، وكأنها ملكتان متميزتان كلياً ، وهدم الادراك نفسه ودفعه نحو ذلك التقسيم الخاطئ كلياً بين " الروح " و " الجسد " .

ج – التمهيد لعلم الكائن :

ان التجربة لم تقدم له ولا في أي مكان وجوداً مشابهاً لذلك الذي كان يتخيله ، ولكن لمجرد أنه كان بأمكانه أن يفكر ، فقد أستنتج ضرورة وجوده . أن هذا الاستنتاج يقوم على فرضية أننا نملك آلة معرفية تخترق جوهر الأشياء ، وهي مستقلة عن التجربة ، وأن كنه فكرنا حسب بارمنيدس ، ليس معطى بأي شكل في الحدس ، بل هو يتولد من أصل آخر من عالم فائق الحساسية يمكننا أن نخترقه مباشرة بواسطة الفكر .

د – القيمة الكونية للمفاهيم :

ان بارمنيدس وزينون يعطون قيمة كونية للمفاهيم ، ويبدو لنيتشه بديهياً كم هي نادرة تلك المفاهيم التي تسمح لنا بالتوصل الى قلب الأشياء والى فك عقد الواقع ، فبارمنيدس وزينون يرميان جانباً عالم الحدس كنقيض للمفاهيم الصحيحة والصالحة دائماً ، وكتجسيد لما هو لا منطقي ومتناقض ، فالملكة المفهومية هي القياس الأعلى والحاسم بالنسبة للوجود واللا وجود أي بالنسبة للواقع الموضوعي ونقيضه .

ويبدو ان الكلمات ليست سوى رموز للعلاقات التي تقيمها الأشياء فيما بينها ، وتلك التي تقيمها معنا ، وهي لا توصل أبداً الى الحقيقة المطلقة ، وحتى كلمة " وجود " لا تحدد الا العلاقة الأكثر عمومية التي تربط كل الأشياء ، مثلها مثل كلمة " لا وجود " ولكن اذا كان من المستحيل ان نبرهن على وجود الأشياء نفسها ، فان علاقة الأشياء فيما بينها ، وما نسميها "الوجود " و " اللا وجود " لا تدفعنا هي الأخرى خطوة واحدة نحو أرض الحقيقة .

ويرى نيتشه ان اللغة مصدر الكثير من الأوهام وان مقولات العقل وقواعد المنطق ، وكذلك القوالب الادراكية للزمان وعمليات التعدد والقياس لكل من الزمان والمكان والكمية ، كل تلك المفاهيم اكتسبناها خلال قواعد لغتنا ، وهو يصفها بقوله : " يا لها من عجوز كريهة مضللة ! أخشى أن لا يكون بامكاننا التخلص من الاله ، لأننا ما زلنا نؤمن بالنحو " [١٧] ويقصد بالاله كما يرى هيدغر العالم الذي يتجاوز عالمنا ، عالم الحواس ، فالاله اسم يمثل عالماً للمثاليات والمطلقات والكليات والثوابت والقيم الأخلاقية . فلا يمكننا ان نتخلص من كل أوهام العقل ما لم نبدأ أولاً بتحليل وتدقيق ونقد لغتنا ، فمثلاً كلمة مساواة في اللغة أدت الى افتراض امكانية المساواة بين الأشياء المختلفة من حيث الكيف ، فما نفعله هو عملية فرض مصطلحات اعتمدناها لفهم وتفسير الوجود ، أي أننا لا نبحث بالوجود بصورة مباشرة بل من خلال اللغة [١٨] .

هـ – الحواس :

حسب حكم بارمنيدس ، فأن كل أحاسيس الحواس لا تنتج الا أوهاماً ، والوهم الرئيسي الذي تولده تحديداً هو كونها تحملنا على الاعتقاد بان اللا وجود يوجد هو أيضاً ، وبأن الصيرورة نفسها وجوداً هي الأخرى . اما نيتشه فيرى ان الحواس لا تخدع ولا تكذب أطلاقاً . والذي نفعله بشهادتها هو الذي يقحم الافتراء فيها ، فالحواس تكشف عن الصيرورة أو عن اللاثبات وعن التحول .

و – الفصل المطلق بين عالم الحواس وعالم المفاهيم :

وقف نيتشه عند الحجج التي قدمت ضد بارمنيدس لفصله بين عالم الحواس وعالم المفاهيم ، وكذلك خطأ التماثل بين الوجود والفكر ، وأنه هذه الحجج اعتراضات املاها تحرك العقل وأصل الظاهرة ومن ثم هي التي تقدمنا خطوة على أرضية مذهب انكساغوارس .

انكساغوراس :

تحدث نيتشه عن مادة العالم وأصل الحركة ونوع الحركة وسرعتها وقد تحولت الصيرورة مع انكساغوراس بعد ان كانت ظاهرة اخلاقية الى ظاهرة فنية ، فالروح بالنسبة لانكسارغوراس هو فنان.

استخدم نيتشه لمفهوم السيطرة في عرضه لعلاقة المادة مع بقية المواد او علاقة الروح او العقل مع مادة اخرى لدى انكساغوراس . اما في علاقة المادة مع بقية المواد ما يجعلنا بطلق بذلك اسماء الاشياء . فحركة الصيرورة هي المسؤولة عن سيطرة مادة معينة على بقية المواد التي لا تظهر الا بكمية أقل . وأحياناً لا نحس بها ، ففي الذهب أي في ما نطلق عليه من حيث مادته الاساسية اسم الذهب ، يوجد أيضاً فضة ، ثلج ، خبز ، لحم ، ولكن بذرات صغيرة جداً ويسمى الكل أنطلاقاً من المادة المسيطرة . بالنسبة للذهب . والمادة تسيطر وتملأ شيئاً ما بشكل مكثف أكثر من بقية الاشياء ، عن طريق الحركة وحدها هي التي تولد هذه السيطرة شيئاً فشيئاً . وأن هذه السيطرة هي حصيلة عملية نطلق عليها اسم الصيرورة .

اما عن علاقة الروح او العقل مع مادة أخرى ، لم يمتزج بها أبداً بل استولى عليها ، حركتها ووجهها على هواه ، وباحتضار ، سيطر عليها ، أنه الوحيد الذي يمتع بالحركة وهو الوحيد أيضاً الذي يتمتع بالسيطرة في العالم .

أن فلسفة نيتشه هي فلسفة ارادة القوة فهي صراع القوي الفاعلة مع الارتكاسية والتي تسود كلها منها فترة معينة من الزمن ، ثم تسود الاخرى ، ويظهر هذا الصراع في كل مجالات الحياة ففي الاخلاق تتصارع اخلاق السادة مع العبيد وتتناوب في الظهور والسيطرة . اما في الفن فتتجلى في ديونسيوس وأبولوا وفي السياسية في الصراع بين الارستقراطية والديمقراطية .

ولكن يبقى السؤال المطروح هل قراءته للفلسفة اليونانية استمدت من موقفه الفكري ؟ او العكس ؟ .

ربما ان صح القول فأن قراءته للفلسفة اليونانية استمدت في بعض منها من موقفه الفكري ، فهو يقدم قراءة جديدة لنصوصهم ، وهذه القراءة نجدها منسجمة ، مع موقفه الفلسفي المقدم في كتبه ، أي ان موقفه الفلسفي كان مكتملا في بعض نواحيه وقد استمد بعض جوانبه من الدراسات الفيلولوجية " علم فقه اللغات القديمة " وهي التي أدت به الى التأمل في حضارة اليونان ، حيث اكتشف واقع ثقافة مضادة للتاريخ ، ثقافة غنية ، وخصبة الى حد يدق عن الوصف . ومن تأملاته للثقافة ظهر كتابه الفلسفة في العصر المأساوي الأغريقي ١٨٧٣ . ويظهر الكتاب كأنه قراءة وتأمل لليونان وآدابهم

وأساطيرهم في عصر المأساة ، فكأنه قراءته للآداب القديمة واستغراقه بها ، قد أومئت له بهذه القراءة للفلاسفة السابقين على افلاطون .

ويبدو ان نيتشه فهم الفلسفة اليونانية قبل افلاطون من خلال ما سبقها ، وقد ربط فهمنا للاغريق بها فيقول : " أنه ما دمنا لا نملك جواباً عن هذا السؤال ماذا يمثل الديونسي ؟ فسوف يبقى الأغريقيون غير معروفين ولا يمكن تخيلهم " [١٩] .

كذلك يشير دولوز ان نيتشه لا يتعرف أطلاقاً على فكرته عن العود الأبدي لدى سابقيه من العصر القديم [٢٠] . فلا يتوقف نيتشه في عرضه لفلسفاتهم عند فكرة العود الأبدي ، بالرغم من ان بعض الكتب في الفلسفة اليونانية تشير الى وجود الفكر في فلسفة انكسيمندريس . الا ان نيتشه لا يشير اليها الا عنده قراءته لفلسفة هرقليطس فقط . في الوقت الذي تشكل فكرة العود الأبدي نقطة مهمة في فلسفته .

الخلاصة

١. حاولت هذه الدراسة ان تكون مدخلا لقراءة فلسفة نيتشة من خلال كتابه الفلسفة في العصر المأساوي الاغريقي ،لتقف عند النقاط التي رأى فيها نيتشة تشكل جزءآ من شخصية الفيلسوف،والتي على التاريخ ان يحافظ عليها،ويمكن ملاحظة ان النقاط التي يقف عندها و تأويله لعبارتهم تتجسد فيه نظرته للفلسفة وماينبغي ان تكونه .
٢. يرى نيتشة ان الفلسفة تبدأ من الميتافيزيقيا ، فأول فيلسوف يوناني أنطلق من مسلمة ميتافيزيقية ، موجودة في كل الانساق الفلسفية.
٣. أختار نيتشه ثلاث نقاط أعتقد أنها تشكل جزءا من شخصية انكسيمندريس ، وهي اسلوبه في الكتابة والمسألة الاخلاقية وطريقته في التعامل مع الحياة وهي في الوقت ذاته من المسائل الجوهرية في فلسفة نيتشه.
٤. امتازت هذه الحقبة بتغليب العنصر الاسطوري ، أي العنصر الفني ، الذي يرى فيه نيتشه المهمة العليا والنشاط الميتافيزيقي الحقيقي في هذه الحياة .
٥. ربما ان صح القول ان قراءة نيتشه للفلسفة اليونانية في كتابه" الفلسفة في العصر المأساوي الأغريقي " أستمدت من موقفه الفلسفي العام،والذي يمكن وصفه بانه قراءة نيتشوية للفلسفة اليونانية قبل افلاطون ، كخطوة منه لإعادة اكتشاف شخصياتها وبلورتها ، وقوله ما لم يقال عن فلاسفتها وان قراءته للفلسفة اليونانية أثرت في موقفه الفلسفي العام .

الهوامش

١. نيتشه ، فردريك : الفلسفة في العصر المأساوي الاغريقي ، ط٢ ، ت – سهيل أدريس ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٣ ،ف١، ص٣٩ .

٢. نيتشه ، فردريك : هذا هو الانسان ، ت . علي مصباح ، منشورات الجمل ، ٢٠٠٣ ، ص٨٣ .

*اعتمد نيتشة طريقة ترقيم الفقرات في كتاباته وكماهوفي الكتاب الذي هو محور البحث (الفلسفة في العصر المأساوي الاغريقي)لذا سنحرص على ذكر رقم الفقرات دون الاشارة لرقم الصفحة ،بأعتباره المصدر الرئيسي في البحث، الا في حالات الاقتباس النصي اشرنا الى رقم الفقرة والصفحة.

٣. نيتشه : هذا هو الانسان ، ص٨٢ .

٤. ستيس ، ولتر : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ت. مجاهد عبد المنعم مجاهد ، ١٩٨٤ ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ص٣٠ .

٥. راسل ، برتراند : حكمة الغرب ، ت. فؤاد زكريا ، ج١ ، مطابع الرسالة ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ص

٦. نيتشه : الفلسفة في العصر المأساوي الاغريقي ،ف٤، ص ٥٠ .

٧. نيتشه : هذا هو الانسان ، ص٩ .

٨. نيتشه ، فردريك : ما وراء الخير والشر ، ت. جيزيلا فالور حجار ، ط١ ، غروب في بيروت ، ١٩٩٥ ، ص٥٤ .

٩. نيتشه : الفلسفة في العصر المأساوي ،ف٤، ص٥٢ .

١٠. مطر ، أميرة حلمي : فلسفة الجمال (أعلامها ومذاهبها) ، دار قباء للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص١٥٧ .

١١. لافرين ، يانكو : نيتشه ، ت. جورج جحا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص٢٥ .

١٢. نيتشه ، فردريك : مولد التراجيديا ، ط١ ، ت. شاهر حسن عبيد ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سورية ، ٢٠٠٨ ، ص٧٩ – ٨٠ .

١٣. فنك ، اويغن :فلسفة نيتشة ،ت. الياس بديوي ،منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ،١٩٧٤،ص٢٢.

١٤. نيتشه ، فردريك : أفول الاصنام ، ت. حسن بورقية – محمد الناجي ، افريقيا الشرق ، بيروت ، ١٩ ٩٦ ، ص٢٥ .

١٥. نيتشه : الفلسفة في العصر المأساوي الاغريقي ،ف٧، ص ٦٣ .

١٦. ينهاماس ، الكسندر : نيتشه الحياة كنص أدبي ، ت. محمد هشام ، افريقيا الشرق ، المغرب ، ٢٠٠٨ ، ص٢١ .

١٧. نيتشه ، فردريك : أفول الاصنام ، ص٣٠ .

١٨. دولوز ، جيل : نيتشه والفلسفة ، ت. أسامة الحاج ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٩٣ .

١٩. نيتشه : مولد التراجيديا ، ص٦٣ .

٢٠. دولوز : المصدر السابق ، ص٤١ .

An Introduction to Studying Nietzsche's Philosophy in his Book "Philosophy in the Tragic Greek Age"

Abstract

Nietzsche is one of the most influential philosophers in the twentieth century. His works are a great incident in the history of philosophy; and are interpreted through various readings. Therefore, the research tries to approach his philosophy in his book, Philosophy in the Tragic Greek Age. That era has almost formed his philosophical attitude. He has tried to rediscover its philosophers and their value. His interpretation of their writings reveals his philosophical attitude and how it should be.